***Journal of Religion & Society* (JR&S)**
Available Online:
https://islamicreligious.com/index.php/Journal/index
Print ISSN: 3006-1296Online ISSN: 3006-130X
Platform & Workflow by: Open Journal Systems

Sheikh Shabbir Ahmad Al-Uthmani's Contributions in Explaining the Oneness of God's Essence and Worship

جهود الشيخ شبير أحمد العثماني في بيان توحيد الذات والعبادة

Syed Shahrukh Kamal
PhD research scholar at the Faculty of Usul-ud-Din, International Islamic University, Islamabad.
shahrukh_syed@hotmail.com
Dr. Abdul Wahab Jan al-Azhari
Assistant Professor at the Faculty of Usul-ud-Din, International Islamic University, Islamabad.
abdulwahab.jan@iiu.edu.pk

Abstract

This article explores the theological contributions of ʿAllāma Shabbīr Aḥmad al-ʿUsmānī, one of the leading scholars of the Indian subcontinent, focusing specifically on his efforts in affirming the oneness of God (Tawḥīd) and refuting polytheism (Shirk). Drawing upon his key works including Fatḥ al-Mulhim, his tafsīr of the Qurʾān, and his treatise al-Islām the article highlights his rational and textual methodology in establishing Tawḥīd al-Dhāt (Oneness of God's Essence) and its practical extension, Tawḥīd al-ʿIbādah (Oneness in Worship). The study further presents his critique of historical and contemporary forms of polytheism, offering a robust intellectual framework rooted in the teachings of the Salaf and aligning with the creed of Ahl al-Sunnah wa-l-Jamāʿah. The article also reflects on the relevance of al-ʿUthmānī's emphasis on Tawḥīd in contemporary contexts, where theological confusion and popular forms of shirk persist. His methodological clarity serves as a model for reestablishing pure Islamic monotheism in both educational discourse and daʿwah efforts.

Keywords: *Tawḥīd, Shabbīr Aḥmad al-ʿUsmānī, Tawḥīd al-Dhāt, Tawḥīd al-ʿIbādah, Shirk, Ilāhiyyāt, Ahl al-Sunnah wa-l-Jamāʿah.*

التمهيد

الحمد لله الذي بيده مقادير كل شيء، وهو القاهر فوق عباده، المهيمن على خلقه، لا تنقطع حججه ولا تبلى آياته، أرسل رسله مبشرين ومنذرين ليقيموا الحجة على عباده وليظهروا دين الحق ويتخذوا منه منهجًا للحياة. فإليه وحده تُرفع أكف الضراعة، وهو الذي انبثقت

منه أصول الحكمة ونظام الكون، حيث يشهد الترتيب العجيب لمكونات هذا الكون على قدرته ورحمته وعدله وحكمته.
وبعد؛ فإن التوحيد هو أصل العقيدة الإسلامية وجوهر الرسالات السماوية، وبه قامت دعوة الأنبياء عليهم السلام، ومنه تنبثق جميع فروع الإيمان والعمل. وقد أولى العلماء عبر القرون هذا الأصل العظيم عناية بالغة، ومن أبرزهم الإمام الجليل الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله تعالى، الذي سطّر في كتبه وتفاسيره بحوثًا قيّمة في بيان مفهوم التوحيد ونقض الشرك، بأسلوب عقلي رصين وطرح علمي أصيل.
وهذا البحث يركّز على جانبين اثنين من جوانب التوحيد: توحيد الذات الإلهية وتوحيد العبادة، وهما محور اهتمام هذا المقال، وذلك نظرًا لمحدودية المساحة المتاحة في نطاق النشر. أما سائر جوانب التوحيد كالأسماء والصفات، فقد تناولها الشيخ في مواضع عديدة من كتبه الأخرى، وهي مجال لدراسة مستقلة في مقام آخر.
وقد تمّ في هذا البحث عرض جهود الشيخ رحمه الله تعالى في تقرير توحيد الذات، وبيان استحالة التعدد في ذات الإله، وإبطال دعوى الشرك العقلي والفلسفي، بأسلوب عميق ومنطقي. ثم انتقلنا إلى رصد إشاراته حول توحيد العبادة، وبيان كيف أن من لوازم الإيمان بإلهٍ واحد أن يُفرد وحده بالعبادة، وهو ما رسّخه الشيخ من خلال نقده لعقائد المشركين واليهود والنصارى وغيرهم.
نسأل الله تعالى أن يكتب لهذا الجهد القبول، ويجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجزي الشيخ العثماني عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

خطة البحث

التمهيد
تقديم لأهمية العقيدة السليمة في علم العقائد الإسلامي، وضرورة حماية التوحيد من الشرك والانحراف، وفق منهج علماء أهل السنة.

المبحث الأول: ترجمة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله تعالى وحياته العلمية
يسلط هذا المبحث الضوء على نشأة الشيخ رحمه الله تعالى في أسرة متدينة، ودوره في نشر العلوم الشرعية، إضافة إلى إسهاماته التعليمية والسياسية في دعم استقلال باكستان.

المبحث الثاني: موقف الشيخ رحمه الله تعالى في إثبات التوحيد ونفي الشرك
يعرض هذا المبحث تعريف التوحيد وأنواعه، ثم يركّز على حجج الشيخ العقلية والنقلية في إثبات توحيد الذات، مع بيان استحالة الشرك وتعدد الآلهة، وبيان تماسك العقيدة الإسلامية في مواجهة التصورات المنحرفة.

المبحث الثالث: موقف الشيخ رحمه الله تعالى إثبات التوحيد في العبادات
يبيّن هذا المبحث أن التوحيد في العبادة هو الثمرة العملية لتوحيد الذات، ويعرض أبرز إشارات الشيخ في تفسيره وشروحه إلى أهمية عبادة الله وحده ونقده لعقائد الأمم المشركة.

خلاصة البحث ونتائجه والتوصيات

يتضمّن هذا القسم ملخصًا لأبرز ما توصّل إليه البحث من نتائج، مع جملة من التوصيات العلمية والدعوية لتعزيز ترسيخ مفهوم التوحيد في الأمة.

المبحث الأول: ترجمة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله تعالى وحياته العلمية

حياته ونشأته وتعليمه

وُلد الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله في 'بجنور' بشبه القارة الهندية عام 1305هـ/1885م،[i] ونشأ في أسرة متدينة من نسل الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه،[ii] مما أضفى على عائلته مكانة علمية وروحية بارزة. منذ صغره، تلقى الشيخ توجيهًا مكثفًا في العلوم الشرعية بفضل والده، ما جعله يُبدي اهتمامًا مبكرًا بالعلوم الإسلامية.[iii] التحق في سن السابعة بدار العلوم ديوبند،[iv] وتلقى تعليمه على يد علماء بارزين مثل الشيخ محمد ياسين – والد المفتي محمد شفيع[v] – والشيخ محمود حسن الديوبندي.[vi] بفضل ذكائه، تولى تدريس كتب المنطق والعلوم الإسلامية رغم كونه طالبًا، وتخرج بتفوق عام 1325هـ/1908م.[vii]

جهوده في العبادة والتعليم والتأثير العلمي

تجلت حياة الشيخ رحمه الله في الزهد والتقوى، حيث كان يُكثر من العبادة والصلاة، ويجد فيها طمأنينة حقيقية رغم قلق والدته على صحته.[viii] بعد تخرجه، بدأ مسيرته التدريسية في دار العلوم ديوبند، ثم في مدرسة 'فتحبوري' بدهلي، حيث تولى منصب رئيس المدرّسين. انتقل لاحقًا إلى جامعة 'دابهيل' وعاد مجددًا إلى ديوبند في فترات مختلفة، مشرفًا على تدريس الفقه والحديث والتفسير، مما أكسبه مكانة مميزة بين طلاب العلم.[ix] كان من بين تلاميذه البارزين المفتي محمد شفيع العثماني، والشيخ محمد إدريس الكاندهلوي،[x] والسيد مناظر أحسن الجيلاني،[xi]وغيرهم من العلماء الذين أصبحوا مراجع في العالم الإسلامي.

جهوده السياسية في دعم استقلال باكستان وصياغة دستورها الإسلامي

في المجال السياسي، كان الشيخ شبير من الداعمين لفكرة إقامة دولة إسلامية مستقلة للمسلمين في شبه القارة الهندية. انضم إلى حزب 'مسلم ليك'،[xii] وشارك في دعم فكرة باكستان، حيث رأى فيها فرصة لإقامة مجتمع إسلامي قائم على الشريعة. وقد طلب القائد محمد علي جناح من الشيخ رفع راية باكستان لأول مرة وأداء صلاة جنازته، مما يعكس عمق علاقتهما. بعد الاستقلال، لعب الشيخ دورًا رئيسيًا في صياغة دستور إسلامي لباكستان، حيث انضم إلى الجمعية التشريعية[xiii] وساهم في إقرار 'قرار الأهداف' عام 1949م لاعتماد الشريعة الإسلامية كأساس للتشريع.[xiv]

إسهاماته في الإصلاح والدعوة وإرثه الفكري

ساهم الشيخ في الدفاع عن العقيدة الإسلامية ونشر الفكر الإسلامي الصحيح، حيث تصدى للأفكار الدخيلة، وجاب الهند لنشر الوعي الديني عبر المحاضرات والخطب، كما نقل علوم المتكلم قاسم النانوتوي بشكل ميسر للطلاب.[xv] توفي الشيخ عام 1369هـ/1949م،

وكانت وفاته خسارة كبيرة للعالم الإسلامي، حيث شارك في جنازته آلاف الناس، وأمّ الصلاة عليه المفتي محمد شفيع العثماني.[xvi] ترك الشيخ خلفه إرثًا علميًا وفكريًا مهمًا يتجلى في مؤلفاته مثل 'الفوائد التفسيرية'، و'الإسلام' و'إعجاز القرآن' و'فتح الملهم بشرح صحيح مسلم'، التي شكلت مراجع لطلاب العلم والعلماء.
مثّلت حياة الشيخ شبير أحمد العثماني مثالًا للعالم المسلم الملتزم بالعلم والعمل والدعوة، وظلت جهوده مؤثرة في دعم قضية المسلمين، مما يجعله نموذجًا يُحتذى للعالم الرباني المخلص لدينه وأمته.

المبحث الثاني: جهود الشيخ رحمه الله تعالى في إثبات التوحيد ونفي الشرك

تعريف التوحيد

التوحيد لغةً:

1. ''وَحَّدَه {تَوْحِيداً: جعَلَه} وَاحِداً) ، وَكَذَا أَحَّدَهُ، كَمَا يُقَال ثَنَّاهُ وثَلَّثَه، قَالَ ابنُ سِيده: (ويطَّرِدُ إِلى العَشَرةِ) عَن الشيبانيّ.''[xvii]

''ووَحَّدَهُ تَوْحِيداً: جَعَلَهُ واحِداً، ويَطَّرِدُ إلى العَشَرَةِ.''[xviii]

واصطلاحًا:

2. ''والتوحيدُ: الإيمانُ بالله وَحْدَهُ. والله الأَوحدُ والـمُتَوَحِّدُ: ذُو الوَحْدانِيَّةِ.''[xix]

''وَالتَّوْحِيدُ: الإيمان بِاللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَاللَّهُ الواحِدُ الأَحَدُ: ذُو الْوَحْدَانِيَّةِ والتوحُّدِ. ابْنُ سِيدَهْ: وَاللَّهُ الأَوحدُ والـمُتَوَحِّدُ وذُو الوحْدانية، وَمِنْ صِفَاتِهِ الْوَاحِدُ الأَحد.''[xx]

''... ٢- إيمان بوحدانية الله.

''٣- «مذهب التوحيد»: القول بإله واحد.''[xxi]

''(التَّوْحِيد) الْإِيمَان بِاللَّه تَعَالَى وَحده لَا شريك لَهُ و (فِي اصْطِلَاح أهل الْحَقِيقَة) تَجْرِيد الذَّات الإلهية عَن كل مَا يتَصَوَّر فِي الأفهام ويتخيل فِي الأوهام والأذهان.

''وَمذهب التَّوْحِيد (فِي الفلسفة) القَوْل بإله وَاحِد.''[xxii]

فالتوحيد إفراد الله تعالى ذاتًا أو صفاتٍ أو أسماءً.

التوحيد عند المتكلمين

عرَّف الإمام الرازيُّ التوحيدَ في تفسيره:

''إِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ لَا قَسِيمَ لَهُ، وَوَاحِدٌ فِي صِفَاتِهِ لَا شَبِيهَ لَهُ، وَوَاحِدٌ فِي أَفْعَالِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ.''[xxiii]

وقال ابن فورك:

''والواحد والأحد بمعنى التوحد الذي هو التفرد النافي للاشتراك والازدواج في النفس والفعل والحكم والصفة؛ لأنه في نفسه غير منقسم، وفي نعته لا مثل له، وفي تدبيره لا شريك له، فهو واحد من هذه الوجوه.''[xxiv]

والقاضي الباقلانيُّ جاء بتعريف التوحيد هكذا:

''الإيمان بالله عز وجل هو: التصديق بالقلب .... والإيمان بالله تعالى يتضمن التوحيد له سبحانه، والوصف له بصفاته ونفي النقائص عنه الدالة على حدوث من جازت عليه. والتوحيد له هو الإقرار بأنه ثابت موجود، وإله واحد فرد معبود ليس كمثله شيء على ما قرر به قوله تعالى: {وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ}[xxv] وقوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ}.[xxvi] وأنه الأول قبل جميع المحدثات، الباقي بعد المخلوقات على ما أخبر به تعالى من قوله:{هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ}،[xxvii] والعالم الذي لا يخفى عليه شيء، والقادر على اختراع كل مصنوع وإبداع كل جنس مفعول ....''[xxviii]

قال أبو المعالي الجويني:

''الباري سبحانه وتعالى واحد، والواحد في اصطلاح الأصوليين الشيء الذي لا ينقسم، ولو قيل: الواحد هو الشيء لوقع الاكتفاء بذلك.

''والرب سبحانه وتعالى موجود فرد متقدس عن قبول التبعيض والانقسام، وقد يراد بتسميته واحدًا أنه لا مثل له ولا نظير.''[xxix]

وقال الإمام الرازي في 'المطالب العالية'، حين يتكلم عن معنى اسم الله الواحد:

'' واعلم أن الواحد قد يراد به نفي الكثرة في ذاته، وقد يراد به: نفي الضد والند .... أنه لا ينقسم .... الواحد الحقيقي هو الذي لا يصح فيه الوضع والرفع .... الواحد ما لا يكون عددًا.''[xxx]

ثم قام بالتفريع على ذلك جملة المسائل، وقال:

''الفرع الأولى: اعلم أنه تعالى واحد في ذاته وواحد في صفاته وواحد في أفعاله .... وهاهنا بحث آخر على ما تقدم: أن صفات الله تعالى إما أن تكون إضافية أو سلبية .... فقولنا: {الله} يدل على جميع الصفات الإضافية المعتبرة في الإلهية، وقولنا: {أحد} يدل على جميع الصفات السلبية؛ وذلك لأن قولنا: {الله} معناه أنه الذي يستحق العبادة، واستحقاق العبادة لا يكون إلا لمن يكون مستقلًا بالإيجاد والإبداع، وذلك لا يحصل إلا لمن كان موصوفًا بالقدرة التامة والحكمة التامة، وأما الأحدية فهي دالة على كونه منزهًا عن التركيبات الحسية والعقلية، وهذا يدل على أنه ليس بجسم ولا متحيز، لأن كل متحيز فهو منقسم.''[xxxi]

وبعده، جاء بتعريف صريح للتوحيد، فقال:

''الفرع الخامس: الكلام في التوحيد: وهو عبارة عن الحكم بأن الشيء واحد، وعن العلم بأن الشيء واحد، يقال: وحدته إذا وصفته بالوحدانية.''[xxxii]

وبعد هذا العرض للتوحيد في جميع أبوابه – الذات والصفات والأفعال – ننتقل إلى التركيز على التوحيد في الذات والتوحيد في العبادة، وهما محل اهتمام هذا المبحث، وذلك نظرًا لمحدودية المساحة المتاحة في هذا المقال.

تعريف الشرك لغةً

3. ''(الشّرك) النَّصِيب (ج) أشراك واعتقاد تعدد الْآلِهَة.''[xxxiii]

4. ''شرك: الشِّرْكَةُ والشَّرِكة سَوَاءٌ: مُخَالَطَةُ الشَّرِيكَيْنِ. يُقَالُ: اشترَكنا بِمَعْنَى تَشارَكنا، وَقَدِ اشْتَرَكَ الرَّجُلَانِ وتَشارَكا وشارَك أَحدُهما الْآخَرَ.''(xxxiv)

''الشِّرْكُ والشِّرْكَةُ، بكسرِهما وضمِّ الثانِي بمعنى وَاد، وَهُوَ مُخالَطَةُ الشَّرِيكَيْنِ .... وَقد اشْتَرَكا وتَشارَكا، وشارَكَ أَحدُهُما الآخرَ والاشْتِراكُ هُنَا بمَعْنَى التَّشارُكِ، وَقَالَ النابغَةُ الجَعْديُّ: (وشارَكْنا قُرَيْشًا فِي تُقاها .... وَفِي أَنْسابِها شِركَ العِنانِ) .... وَقَالَ الأَزْهَرِيّ: والشرك يكون بمَعْنَى الشَّرِيكِ، وَبِمَعْنى النَّصِيب وجمعُه أَشْراكٌ كشِبرٍ وأَشْبارٍ، وَقَالَ لَبِيدٌ: (تَطِيرُ عَدائِدُ الأَشْراكِ شَفْعًا ... ووِتْرا والزَّعامَةُ للغُلامِ). وَهِي شَرِيكَةُ الرَّجُلِ، وَهِي جارَتُه وزوجُها جارُها، وَهَذَا يَدُلُّ على أَنَّ الشَّرِيكَ جارٌ، وأَنّه أَقْرَبُ الجِيرانِ شَرائِكُ.''(xxxv)

تعريف الشرك اصطلاحًا

5. ''اعتقاد تعدد الْآلِهَة.''(xxxvi)

6. ''وأَشْرَك بِاللهِ: جَعَلَ لَهُ شَرِيكاً فِي مُلْكِهِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ، وَالِاسْمُ ''الشِّرْكُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ عَبْدِهِ لُقْمَانَ أَنه قَالَ لِابنه: يا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ.

''والشِّرْكُ: أَن يجعل لِلَّهِ شَرِيكًا فِي رُبوبيته، تَعَالَى اللَّهُ عَنِ الشُّرَكاء والأَنداد، وإِنما دَخَلَتِ التَّاءُ فِي قَوْلِهِ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ.

''لأَن مَعْنَاهُ لَا تَعْدِلْ بِه غَيْرِهِ فَتَجْعَلَهُ شَرِيكًا لَهُ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً؛

''لأَن مَعْنَاهُ عَدَلُوا بِهِ، وَمَنْ عَدَلَ بِهِ شَيْئًا مِنْ خَلقه فَهُوَ كَافِرٌ مُشْرِك، لأَن اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شريكَ لَهُ وَلَا نِدَّ لَهُ وَلَا نَديدَ. وَقَالَ أَبو الْعَبَّاسِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ؛

''مَعْنَاهُ الَّذِينَ هُمْ صَارُوا مُشْرِكِينَ بِطَاعَتِهِمْ لِلشَّيْطَانِ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى أَنهم آمَنُوا بِاللهِ وأَشركوا بِالشَّيْطَانِ، وَلَكِنْ عَبَدُوا اللَّهَ وَعَبَدُوا مَعَهُ الشَّيْطَانَ فَصَارُوا بِذَلِكَ مُشْرِكين، لَيْسَ أَنهم أَشركوا بِالشَّيْطَانِ وَآمَنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ.''(xxxvii)

صرح الشيخ العثماني رحمه الله تعالى بمباينة التوحيد والشرك.(xxxviii) فإذا كان التوحيد إفراد الله تعالى في ذاته أو صفاته أو أسمائه، فالشرك إشراك الغير معه في ذاته أو صفاته أو أسمائه.

أهمية التوحيد

هذا الموضوع هو من أهم أركان العقيدة وأساس في الإيمان، حيث خلق الله تعالى مخلوقاته ليعبدوه وحده دون إشراك. قال الله تعالى في القرآن الكريم: {وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}.(xxxix) وأكد الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله تعالى ذلك في عدة مواضع من تفسيره وشروحه للصحيحين، فقال:

''وتفصيل ذلك على ما استخرجنا من مصنفات شيخ شيخنا العارف بالله محمد قاسم النانوتوي نور الله مرقده:

''أن المقصد الوحيد من خلق العالم بجميع أجزائه هو العبادة فقط، وكل ما سوى ذاك فإنما هو داخل في مباديها ومعداتها وتوابعها وثمراتها. فإن الله تعالى جلّت

قدرته إنما فطر السموات والأرض وما بينهما للناس، وما خلقهم إلا ليعبدوا؛ فالدنيا إنما خُلِقَتْ لنا، ونحن خلقنا للآخرة والعبادة.''[xl]

فالغاية العظمى من خلق الإنس والجن هي عبادة الله وحده، دون إشراك. لذا فإن كل عمل يقوم به الإنسان بلا توحيد مرفوض ولا يُقبَل منه شيء. وقال الشيخ رحمه الله تعالى معبرًا عن هذه الفكرة:

''قوله: {أَوَّلَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ} إلخ: المراد بعبادة الله توحيده، وبتوحيده الشهادة له بذلك، ولنبيه بالرسالة، ووقعت البداءة بهما لأنهما أصل الدين الذي لا يصح شيء غيرهما إلا بهما.''[xli]

وسيغفر الله تعالى لمن يشاء من عباده مهما كان عظم ذنبه أو عدم توبته، إلا المشركين. فالشرك يُعدّ أعظم الذنوب، إذ فيه تعدٍ على حقوق الخالق المحيي المميت المنعم عَزَّ وَجَلَّ. وقد عبر الشيخ رحمه الله تعالى عن أهمية التوحيد بقوله:

''.... التوحيد، وهو رأس الطاعات، ولب الأعتقادات، وأم العبادات، ورأس القربات.''[xlii]

ويُعدّ توحيد العبادة الثمرة العملية لتوحيد الذات؛ فمن آمن بإلهٍ واحدٍ متفرّد في ذاته، لزمه أن يفرده وحده بجميع أنواع العبادة، إذ لا يستحقّها إلا من اتّصف بالكمال المطلق. ولذا، نرى أن جميع الأنبياء أُرسِل لتحقيق هذه الغاية الأسمى.[xliii] ففسَّر الشيخ رحمه الله تعالى، في تفسيره، التوحيد على أنه الدين الفطري الذي عبَّر عنه الله تعالى – إلى جانب أمور أخرى – في القرآن الكريم بالبينة،[xliv] وكلمة طيبة.[xlv] ولذلك تناول الشيخ رحمه الله تعالى هذا الموضوع العظيم الأهمية ليؤكد على حق الله تعالى في العبادة وتوحيده، أي ضرورة وجود معبود واحد دون شريك.

أقسام التوحيد والشرك

ذكر الشيخ رحمه الله تعالى أقسام الشرك في رسالته 'الإسلام' حين أنكر على الشرك في اختتام موضوع التوحيد،[xlvi] وكذلك في شرحه لصحيح البخاري.[xlvii] فهي:

1. الشرك في الذات.
الشرك في الصفات.
الشرك في العبادة.

وحين نعلم أن التوحيد والشرك متناقضان، فالشرك ضد التوحيد وبالعكس. فيمكننا عكس أقسام الشرك لترتيب أقسام التوحيد، وهي التالي:

2. التوحيد في الذات.
التوحيد في الصفات.
التوحيد في العبادة.

جهود الشيخ رحمه الله تعالى في إثبات التوحيد في الذات

خصَّ الشيخ رحمه الله تعالى رسالةً مستقلةً لإثبات أصل أصول الإسلام – كما ذكرناه سابقًا. وقد اختتم بحثه في مسألة وجود الله تعالى بتأكيد أن إثبات وجود إله يمهد لمسألة أخرى، وهي: هل يكتفي هذا الكون بإله واحد، أم أن تدبير شؤونه يتطلب تعدد الآلهة لتولي التنظيم، قضاء حوائج العباد، وضمان بقاء سلطانه؟ ثم تناول الشيخ رحمه الله تعالى

موضوع التوحيد بالتعريف بأن الإسلام هو الدين الوحيد الذي لم تتزلزل قدماه في هذه المسألة، متميزًا فيها عن سائر الأديان والمذاهب، واستمر بحثه بعد ذلك بمنهج عقلي محكم.[xlviii]

الدليل الأول

أول دليلٍ ساقه الشيخ رحمه الله تعالى على استحالة وجود إلهٍ آخر مع الله سبحانه وتعالى هو عدم الفساد الظاهر في الكون.[xlix] وبيَّن الشيخ رحمه الله تعالى أنَّ من المسلّمات أن الإله الكامل هو وحده من يستحق الألوهية، إذ يملك القدرة على إيجاد الكمال المطلق وسدِّ كل نقص، على عكس المخلوق الذي يفتقر إلى الكمال ويشوب وجوده القصور. وعليه، فإن وجود إلهٍ ناقصٍ أو مُجبَرٍ على مشاركة الألوهية ينفي استحقاقه لها؛ إذ لا يمكن تصور أن يكون إله آخر على قدم المساواة مع الله في إحداث الكمال. واستدل الشيخ رحمه الله تعالى بأنَّ المشاركة في ألوهية الكون بين إلهين أو أكثر من شأنها أن تؤدي إلى تقسيم قدرة كل إله، مما يتعارض مع ضرورة كمال الإله الواحد المطلق.

> ''عندما يكون وجود الإله كاملًا من جميع الجهات، وتأثيره على إيجاد المخلوقات تامًّا، فإن وجود إلهين متماثلين أو أكثر سيفرض مشاركةً بينهما في المخلوقات. مثلًا، إذا كان الوجود الكامل لكل إله يتوزع على المخلوقات حسب قابلية كل منها، فإن مسألة تداخل المساحات ستظهر، فالساحة تتسع في ساحة، والوسادة في وسادة. كذلك، لن يستطيع قلب واحد استيعاب شيئين متكاملين، ولا وعاء بقدر الحبة يستوعب حبتين، ولا حذاء واحد يتحمل خطوتين متماثلتين، ولا ثوب واحد يغطي جسمين متماثلين، ولا غمد واحد يستوعب سيفين بنفس الحجم، ولا منزل يتسع لعدة أمور متضاعفة تفوق طاقته. وعندما يُجبر شيئين على الاندماج في قالب واحد، ينكسر القالب أو يفسد. وبالمثل، إذا تم توحيد التأثيرين الكاملين من إلهين في مخلوق واحد، فإن هذا المخلوق لن يستطيع الاحتمال، وسيؤدي ذلك إلى فنائه وتدميره.''[l]
>
> وهذا يبيّن استحالة تعدد الآلهة في نظام الوجود، وضرورة توحد الخالق في ذاته وأفعاله. وبالتالي، لا بد من خيارين لا ثالث لهما: إما إلهٌ واحد كامل الوجود مطلق القدرة، أو إلهان ناقصان يحتاجان إلى التعاون. وقد أشار الشيخ رحمه الله تعالى هنا إلى مفهوم الشراكة الإلهية التي يدعيها أهل الشرك، مُبيّنًا أنَّ الكمال الإلهي – الذي اعترف به كل أهل المذاهب والأديان – لا يسمح بالمشاركة لأنه يتطلب التفرّد بالقدرة الكاملة دون مشاركة أو نقصان.

فبالتالي، لا بد من خيارين لا ثالث لهما: إما إلهٌ واحد كامل الوجود مطلق القدرة، أو إلهان ناقصان يحتاجان إلى التعاون، وهو ما يتناقض مع الكمال الإلهي. وقد أشار الشيخ رحمه الله تعالى هنا إلى مفهوم الشراكة الإلهية التي يدّعيها أهل الشرك، مبيّنًا أن الكمال الإلهي لا يسمح بالمشاركة، لأنه يتطلب التفرّد المطلق في القدرة دون نقصان، وهو ما اعترف به كل أهل المذاهب والأديان. فالإله الواحد يتمتع بقوة وشوكة تفوق أي قوة لآلهة متعددة قد تكمل بعضها، مما يجعل تفرده أكثر انسجامًا مع مفهوم الألوهية الكاملة.[li]

الدليل الثاني

الدليل الثاني يعتمد على الاعتراف بأن الله سبحانه وتعالى قيّوم مستقل لا يحتاج إلى غيره، وأنه تعالى أصل كل شيء، بينما كل ما سواه يعتمد عليه كفرع لأصله. فكما يكون لكل سلسلة أصلٌ تستند إليه، فإن اعتماد الفرع على أصلٍ واحد هو مبدأ ثابت في الكون. فضياء الشمس، على سبيل المثال، يدخل البيوت من نوافذ مختلفة، إلا أن مصدره واحد وهو الشمس. كذلك تمتد سلسلة الأعداد إلى اللانهاية، لكن أصلها العدد واحد. فلا توجد أية سلسلة بغير أصل، وللأصول أصلٌ أعلى يجمعها.

ثم ضرب الشيخ رحمه الله تعالى أمثلة من تعدد الأصول، فقال إن الإنسان قد يكون مسلمًا أو يهوديًّا أو نصرانيًّا أو هندوسيًّا، إلا أن أصلهم جميعًا إنسان.[lii] وعلى هذا، مع اختلاف الأصول في الإنسان والفرس والحمار والكلب، إلا أن أصلها الجامع هو الحيوان، كما أن أصل الحيوان والنبات هو الجسم، وأصل الأصول جميعًا هو الوجود.

بعد هذا الإثبات، أثبت الشيخ رحمه الله تعالى أن وجود العالَم عرضي واختتم دليله بإثبات ما ابتدأه به. فقال:

> ''في النهاية، يُختَتَم اشتراك العالم كله إلى وجود واحد، غير أن هذا المشترك ليس عين الموجودات – كما ثبت في موضعه بالدلائل – بل، كما يكون الشيء موجودًا أحيانًا ومعدومًا أحيانًا أخرى، يُقال إن وجود العالم خارجي وعرضي وليس أصليًّا أو ذاتيًّا، مثلما لا يسخن الماء بذاته وإنما يكتسب حرارة مؤقتة من النار التي تمتلك الحرارة كخاصية أصيلة وذاتية. وبالمثل، فإن الوجود العرضي للعالم يحتاج إلى استعارة من كائن حقيقي يمتلك وجودًا أصيلاً غير مستعار. كما أن الشمس تُشرق في آلاف الأماكن، إلا أن جميعها تستمد نورها من شمس واحدة، فإنه يجب علينا أن نؤمن بأن وجود الكون هو أيضًا نور من كائن حقيقي وأصلي. نحن نعتبره الله ونعتقد أنه لا مجال فيه للتعدد.''[liii]

وبهذا يتضح أن وجود العالم ليس ذاتيًا، بل هو مستفاد من واجب الوجود الواحد الأحد. ولكن من هذا المثال برزت بعض الإشكالات التي تصدى الشيخ رحمه الله تعالى للإجابة عنها.

الإشكال الأول هو إمكانية دمج الأضواء المتماثلة من الشموس وظهورها كضوء واحد، كما في أضواء النجوم، مما قد يُفهم كدليل على إمكانية تعدد الآلهة. وقد أجاب الشيخ رحمه الله تعالى بأن رد هذا الإشكال قد ذُكر سابقًا، وهو أن كل سلسلة تنتهي إلى أصل واحد، وتنحصر جميع التمايزات في العالم إلى شيء واحد. كما أشار إلى أن صفة الوحدة في الأشياء موجودة عرضيًا بسبب تجزئتها، فالشيء الأصلي لا يزول بالانقسام أو التعدد. وقد اعتبر الشيخ رحمه الله تعالى هذا دليلًا على أن وحدة العالم عرضية، مثل وجوده، مما يستلزم أن تكون وحدة العالم فيضًا من الوجود الأصلي، كما أن وجود العالم نفسه فيض من وجود ذلك الكائن الأصلي، وتكون وحدة ذلك الكائن أصيلة كأصالة وجوده.

ثم أُثير الإشكال الثاني، وهو أن التعدد قسم من أقسام الوجود مثل الوحدة. فإذا كان كل وجود العالم عرضيًا، وامتدَّ وجود الله تعالى، فإن ذلك يستلزم وجود صفة التعدد في الله وكونها أصيلة وذاتية. وقد أجاب الشيخ رحمه الله تعالى بأن اعتبار التعدد من أقسام الوجود هو خلط، لأن التعدد يعتمد على العدم وليس له أصالة في الوجود. وشرح ذلك بمثال فقال:

> ''انظر؛ نحن نعلم أن نور الشمس شيء واحد، لكن إذا تساوت نافذتا البيت في الحائط، فبسبب الظلام في المنتصف، يظهر نور كل نافذة منفصلًا عن الآخر.

وهذه الكثرة ناشئة بسبب الظلام. فإذا لم يكن هناك نور في الأطراف ولا ظلام في المنتصف، مثلًا، إذا أُزيل الحائط من المنزل، فسوف ينتشر الضوء في كل مكان، ولن يبقى مطلقًا هذا الفرق والتمييز الذي يسمى الكثرة. وبما أن الظلام هو غياب الضوء، وغياب الضوء هو العدم، فيتضح أن سبب الكثرة هو العدم، وليس أن الكثرة من أنواع الوجود.''[liv]

فدلّ ذلك على أن الكثرة ليست من مقوّمات الوجود، بل هي ناتجة عن العدم، مما يُثبت أن الوحدة أصيلة والتعدد طارئ.

ثم أثبت الشيخ رحمه الله تعالى بذلك وجوب اتصاف الله تعالى بجميع الأوصاف الوجودية التي توجد في العالم، وضرورة انتفاء الأوصاف العدمية عنه، بحيث لا تكون الوحدة فيه أصليةً بالتقسيم، وبيَّن استحالة ذلك.

''ومع ذلك، من المستحيل أن يكون وجوده أصليًا، وأن تصل جميع أنواع الوجود إلى المخلوقات منه، وهو منبع ومصدر لكل وجود، ومن ثم لا تتواجد بعض أنواع الوجود فيه بصفة أصيلة. وثبت أيضًا أن وجوده عين ذاته، وذاته عين أوصافه، وأوصافه عين وجوده، وإلا فلن تبقى الوحدة الأصلية والوجود الذاتي.''[lv]

ثم أراد الشيخ رحمه الله تعالى توضيحًا أعمق لإزالة شبهة تعدد الإله أو صانع الكون من أساسها، فشرح ذلك بتمثيل منطقي. قال إن التعدد في الألوهية مع اشتراك الشركاء يستلزم تمييزًا بينهم في بعض الأمور. وبالتالي، إذا اشترك إلهان أو صانعان في الصنعة وفي الوجود الأصلي، فلا بد أن يختلفا في جانبٍ ما، وهذه الخصائص المختلفة تُعبّر اصطلاحًا بـــ''الذات''. فإذا اشترك إلهان في الوجود وكان ذاتهما دون وجودهما، وكانت كل الأشياء عدا الوجود معدومةً من الأساس، فإن ''الذات'' عدا الوجود تكون معدومةً محضة، ويصبح كل إله خاليًا من الوجود في حد ذاته. فلا يمكن أن يكونا موجودين أصليَّين لأن الوجود يكون عارضًا عليهما، مثلما تُنير الشمس الأشياء التي هي بذاتها مظلمة. إذن، كلا الإلهين محتاجٌ إلى كائنٍ له وجود ذاتي، ويكونا مجرد وسيلتين للوجود بينه وبين المخلوق، وليسا موجدين بالذات.[lvi]

فكل تصور لذاتين مستقلتين يستلزم نقصًا في أحدهما أو كليهما، وهذا يناقض كمال الإله الحق. وبهذا ينقطع تسلسل كل شيء إلى موجود واحد أصلي، وهو جوهر التوحيد. أما تعدد الصناع والموجودين الأصليين، فإنه يدعمه ويؤكده. ثم وضح الشيخ رحمه الله تعالى هذا الأمر قائلًا:

''لأن السماء أو الزمن يُعتبَر فاعل وقائع العالم بسبب شهرته، والإنسان والحيوان وغيرهما يظهرون كخالقين للأفعال الاختيارية عند أهل الظاهر، والدواء والدعاء مؤثران حقيقيان لتأثيرهما. فكل هذه الأشياء، من حيث فيوضها، ستكون وسائل للفيض ووسائط للإيجاد، وسينحل دون جهدٍ اللبس الذي وقع فيه بعض أهل الظاهر بشأن كونها خالقة. وفي ذلك الوقت سنتمكن من أن ننادي بصوت جهوري أن كل ما يبدو ظاهرًا كمصدر للأفعال أو التأثيرات، إنما هو مثل أدوات الحرفي أمام الإله الأكبر. في الظاهر، تبدو هذه الأشياء فاعلة، ولكن الله هو الفاعل الحقيقي؛ فالأفراد من المرتبة العليا، كالنبي أو الولي، ومن المرتبة الأدنى، كالعفريت أو الجني أو الأفتار، أو السماء الدوارة، أو الدواء، أو الدعاء،

أو الحجر، أو أي كائن حي، أو الزمان، أو المكان، أو القمر، أو الشمس، أو النجوم، أو أي شيء آخر، جميعهم مطيعون أمام الله كما هي السفن والأدوات المختلفة مطيعة أمام النجار، فلا تتحرك إلا بإذنه، ولا تفعل شيئًا إلا بمشيئته.
''.... وبنفس الطريقة، فإن علة العلل والفاعل الحقيقي لسلسلة العالم هو إله واحد. لا يمكن لأي أدنى فعل أو حتى أصغر شيء أن يوجد بدون إرادته ومشيئته،[lvii] ولا تجرؤ أي قوة على معارضة سلطانه. لا أحد يستطيع مقاومة ما يشاء، وحتى أقرب المقربين لا يمكنهم تحريك شفاههم في حضرته إلا بإذنه. هذه هي العقيدة التي دعا إليها الإسلام بقوة، وهي الأساس في تعليم الرسول ﷺ، ونشر هذا المفهوم هو الهدف الأول من بعثة جميع الأنبياء.''[lviii]

وبهذا يتبين أن الله هو خالق وموجد كل شيء وحده، لا يحتاج إلى إعانة أحد، وهو المتفرد بالقدرة التامة.[lix] وكل قوة أو مؤثر في الكون هو مظهر لأمر الله، ولا استقلال له في الفعل أو التدبير.

التوحيد الخالص

ثم اختتم الشيخ رحمه الله تعالى موضوع التوحيد في رسالته 'الإسلام' ببيان تفرد الإسلام في عقيدة التوحيد الخالص، وهو مذهب سيدنا إبراهيم عليه السلام وذريته، من سيدنا إسحاق ويعقوب ويوسف، وصولًا إلى نبينا سيدنا محمد ﷺ، كما أوضح الشيخ رحمه الله تعالى في تفسيره.[lx] وعلى خلاف أولئك الذين وقعوا في الشرك ولكن لم يتركوا التوحيد كليًا، فجمعوا بين الشرك والتوحيد، كان الإسلام متمايزًا. فقد أدرك الشيخ رحمه الله تعالى أن هذا المزج تناقض بين النقيضين،[lxi] وأكد على أن الشرائع جميعها تشترك في أصل واحد، وهو العقيدة.[lxii] وأصل الأصول فيها هو التوحيد والنبوة.

شبهة على التوحيد غير عقلي

من جانب، أثبت الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله تعالى التوحيد بأسلوب المنطق، مستخدمًا دلائل واضحة وبراهين قاطعة، ومن جانب آخر، قام بالرد على الشبهات وأكد أنها كلها غير عقلية. وقبل أن ننقل رد الشيخ التفصيلي، نُجمل الشبهة في صورتها الفلسفية: إذا كانت الفطرة والعقل يدلان على إله واحد كامل، فلماذا تتعدد مظاهر العبادة وتتنوع الآلهة عند المشركين؟ وهل هذا التعدد نابع من حاجة عقلية أو انحراف في الفطرة؟ فقال الشيخ رحمه الله:

''إن ذات الله تعالى ووحدانيته أمران لا شك فيهما؛ فالفطرة الإنسانية تشهد على وجود الله تعالى. كما يشير النظام العجيب في العلويات والسفليات إلى أن صانع هذا الجهاز (أي الكون)، ومرتب أجزائه بإتقان، يجب أن يكون صاحب قوة عظيمة، يسيطر على نظام الكون بحكمته الكاملة وباختيارٍ مطلق. لذلك، حتى المشرك المخلص لا يجد مفرًا من الاعتراف، بشكل أو بآخر، بوجود إله كبير أعلى مقامًا من آلهة صغيرة. أما تعليمات الأنبياء فتقول: إن كانت الفطرة الإنسانية قد أدت إلى إله واحد، عليم حكيم، قادر عزيز، منبع الكمالات، فلماذا نجعل هذا المعتقد الفطري البسيط ضحيةً للأوهام والظنون؟ إن الوجدان يشهد أن إشراك حجر، أو شجر، أو صورة إنسانية، أو كوكب سماوي، أو أي مخلوق

آخر في الألوهية، مع وجود إله واحد قادر مطلق، عالم الكل، إنما هو إخماد لصوت الفطرة السليمة وإفساد لها. فهل هناك نقصٌ في ذات الله تعالى أو صفاته - معاذ الله - يستدعي إكماله بجمعية من الآلهة المخلوقة؟''[lxiii]

كما ذكر الشيخ رحمه الله تعالى بعد قليل في تفسير الآيات: {أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ٢٦}،[lxiv] أن الكلمة الطيبة في هذه الآيات هي دعوة التوحيد، ثابتة وحقة، كالشجرة الطيبة التي لها أصل ثابت وفروع عالية. أما الكلمة الخبيثة فهي دعوة الشرك، كشجرة خبيثة لا قرار لها. وشرح الشيخ رحمه الله تعالى هذه الآيات قائلًا:

''فحاصل كلا المثلين هو أن ادعاء المسلمين للتوحيد والإيمان متين وصادق، ودلائله واضحة وصحيحة ومحكمة. لموافقته الفطرة، تمتد جذوره في أعماق القلوب، بينما تتصل فروع الأعمال الصالحة بسماء القبول؛ {إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ}.[lxv] ويستمتع الموحدون دائمًا بلطف وثمرات حلوة من عملهم. فيزدهر شجر الحق والصدق والتوحيد والمعرفة يومًا بعد يوم ويترسخ بصلابة ويعلو. وعلى العكس، فإن الباطل والادعاءات الباطلة للشرك والكفر ليس لها أي جذور أو أسس، فتتطاير مع أدنى هبوب للريح. مهما حاول البعض إثبات الباطل، فإنه لا ينفذ إلى أعماق القلب، لأنه يعارض ضمير الإنسان وفطرته، ويتضح بيسير من التأمل أنه باطل. لذا يُقال: الكذب ليس له أقدام، أي إنه لا يسير على قدمين مثل الحق، ولا ينير القلب.''[lxvi]

وبهذا تتجلى قوة التوحيد في ذاته، ووضوح دلائله وثباته، في تمييزه عن الباطل والادعاءات الزائفة. ومع هذا اليقين، ننتقل إلى جانب آخر من جوانب التوحيد، وهو التوحيد في العبادات.

المبحث الثالث: جهود الشيخ رحمه الله تعالى إثبات التوحيد في العبادات

التوحيد في العبادة هو الغاية من خلق الإنس والجن، كما قال الله تعالى في القرآن الكريم: {وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ}.[lxvii] وهو ثمرة التوحيد في الذات؛ فإذا لم يكن هناك إله مع الله، فلا يستحق العبادة أحدٌ سواه. بعبارة أخرى، إذا أقرّ الإنسان بعقيدة التوحيد الخالص في الذات، فلا مفر له من الإقرار بالتوحيد الخالص في العبادات.

رغم أن الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله لم يُفرد لتوحيد العبادة بحثًا مستقلاً كالذي خصّ به توحيد الذات، إلا أنه أشار إليه في مواضع متعددة من تفسيره وشرحه، مبينًا أن التوحيد في العبادة هو ثمرة التوحيد في الذات، ومن لوازمه العملية. وسنستعرض هنا أبرز ما جاء في كلامه في هذا الباب.

ومن مظاهر الانحراف عن هذا التوحيد العملي أن البشرية في مختلف العصور اتخذت آلهة متفرقة، ووجهت عباداتها لغير الله، مما استوجب البيان والتفنيد.

التعارف بالأقوام المشركين

عدد الشيخ رحمه الله تعالى الآلهة التي يعبدها الأقوام المشركون المشهورون، مستعرضًا انحرافهم عن الدين القيم وجرأتهم على الله سبحانه وتعالى وطغيانهم وسفاهتهم. فذكر أن

المجوس يعتقدون بوجود إلهين خالقين للكون: 'يزدان'، خالق الخير الملقب بالنور، و'أهرمن'، خالق الشر الملقب بالظلمة. أما الهندوس، فلهم ثلاثمائة وثلاثون مليون إله. وتعتقد جماعة 'آرية ساماج' – التي تعني المجتمع النبيل – أن المادة والروح غير مخلوقتين كالله تعالى، وأن الله يحتاج إليهما لتحقيق صفتيه في التكوين والخَلق. وقد تبنّى المسيحيون عقيدة التثليث، معتقدين أن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد، حيث يقيمون التناسب والتوازن بين الأب – الله سبحانه وتعالى عما يشركون – والابن – سيدنا عيسى على نبينا وعليه السلام. وكذلك اليهود، فقبل النصارى اعتبروا سيدنا عزيرًا على نبينا وعليه السلام ابنًا لله سبحانه وتعالى، وكانت هذه العقيدة موجودة حتى زمن رسول الله ﷺ، إذ لم ينكر اليهود ما وصفهم به القرآن من هذا الاعتقاد.[lxviii] وقال الشيخ رحمه الله تعالى:

''كمن يقول ببنوة عزير أو يعتقد التشبيه فتكون مطالبتهم بالتوحيد لنفي ما يلزم من عقائدهم. كذا في الفتح.

''تنبيه:

''قال ابن العربي في شرح الترمذي: {تبرأت اليهود في هذه الأزمان من القول بأن العزير ابن الله، وهذا لا يمنع كونه موجودًا في زمن النبي ﷺ؛ لأن ذلك نزل في زمنه، واليهود معه بالمدينة وغيرها، فلم ينقل عن أحد منهم أنه ردَّ ذلك ولا تعقبه، والظاهر أن القائل بذلك طائفة منهم لا جميعهم، بدليل أن القائل من النصارى أن المسيح ابن الله طائفة منهم لا جميعهم، فيجوز أن تكون تلك الطائفة انقرضت في هذه الأزمان كما انقلب اعتقاد معظم اليهود عن التشبيه إلى التعطيل، وتحول معتقد النصارى في الابن والأب إلى أنه من الأمور المعنوية لا الحسية، فسبحان مقلب القلوب} |هـ .

''قلت: وقد أخبرني بعض كبرائنا (أي مخدومنا الحاج أمير شاه خان رحمه الله) أنه بالغ في تفتيش ما زعمته يهود عصره في مسألة ابنية عزير عليه الصلاة والسلام، واجتهد في تحقيقه غاية الجهد، فتبرَّأ كل يهودي لقبه من هذا الاعتقاد الشنيع، حتى لقي بعض علمائهم بِبيتِ المقدس، وسأله، فاعترف بأن فيهم شرذمة قليلة تزعم بأن عزيرًا ابن الله وهم موجودون الآن، وعددهم لا يزيد على مئة ألف في العالم، قال: ثم لقيت بعض أفراد تلك الفرقة، وشافهتهم وهم في نهاية من الذلة والصغار، يقال لهم: العزيرية ولواحدهم: {عزيري} فسألته، فأقر بما أخبرت به، وقال: نؤمن بأن عزيرًا ابن الله من غير شك وتردد، تعال الله عما يقول علوًا كبيرًا.''[lxix]

ولكنهم تجاوزوا ذلك، فجعلوا الله مساويًا للبشر، بل نسبوا إليه صفات لا تليق حتى بالإنسان. كما قالوا – فيما أخبرنا الله عنه – {لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ}،[lxx] وقالوا أيضًا: {وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ}.[lxxi] كما أشار الشيخ رحمه الله تعالى إلى إمكانية اعتقاد بعض اليهود بأبنية الله لهم، كما نقل الله تعالى قولهم: {وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ}،[lxxii] ولذلك لم يتعرضوا للعقوبة على ذلك الظن.[lxxiii] وكتب الشيخ رحمه الله تعالى مزيدًا على ذلك:

''قوله: {فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ} إلخ: علم منه أن أهل الكتاب ليسوا بعارفين، وإن كانوا يعبدون الله ويظهرون معرفته.
''قال حذاق المتكلمين: ما عرف اللهَ من شَبَّهه بخلقه أو أضاف إليه اليد المغلولة، أو أضاف إليه الولد، فمعبودهم الذي عبدوه ليس هو الله، وإن سموه به.''[lxxiv]
وأما العرب، فكانوا يعبدون كل حجر وكل شيء رأوه قابلًا للعبادة.[lxxv] وكانت جميع هذه المذاهب مخالفةً لما كان عليه سيدنا إبراهيم عليه السلام وذريته من الأنبياء: سيدنا إسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام ونبينا سيدنا محمد ﷺ.[lxxvi]
وبهذا يتضح أن جميع المعتقدات التي انحرفت عن التوحيد الخالص لم تتبع مسيرة سيدنا إبراهيم وأنبياء الله من ذريته عليهم السلام، الذين دعوا الناس إلى عبادة الله وحده دون شريك. فكان التوحيد هو الأساس القويم في عقيدة الأنبياء عليهم السلام، وبه قامت دعواتهم منذ فجر التاريخ حتى خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ. ولذلك يظل التوحيد العقيدة الصحيحة التي تحرر الإنسان من عبادة غير الله، وتوجهه نحو عبادة خالق الكون وحده، مستجيبًا بذلك لنداء الفطرة السليمة.
وبهذا يكون الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله قد قدم نموذجًا رائدًا في ترسيخ عقيدة التوحيد بنفي الشرك وإثبات الألوهية لله وحده، مبينًا أن التوحيد في العبادة هو التجلي العملي الأتمّ للإيمان بوحدانية الله في ذاته.

خلاصة البحث

تناول هذا البحث جهود الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله تعالى في إثبات توحيد الله في ذاته وتوحيده في العبادة، وهما من أبرز أركان العقيدة الإسلامية التي بُني عليها الدين. وقد تم تحليل هذه الجهود من خلال مصادره المختلفة، لا سيما كتابه الإسلام، وتفسيره، وشرحه على صحيح البخاري.
في المبحث الأول، عالج البحث مفهوم التوحيد لغةً واصطلاحًا، ثم بيّن أن التوحيد في الذات يعني نفي أي شريك أو مماثل لله في ذاته، وهو ما أثبته الشيخ بأساليب عقلية وفلسفية دقيقة، مدعومة بالأمثلة والبراهين العقلية والشرعية. وقد أظهر البحث كيف أن الشيخ رحمه الله استخدم أسلوبًا وسطًا بين البرهان الفلسفي والنص الشرعي لإبطال فكرة تعدد الآلهة أو وجود أكثر من خالق.
أما في المبحث الثاني، فتم تسليط الضوء على التوحيد في العبادة باعتباره الثمرة العملية لتوحيد الذات، حيث أشار الشيخ إلى أن من آمن بإله واحد لزمه أن يعبده وحده، ولا يشرك معه أحدًا في دعاء أو رجاء أو نذر أو استعانة. وقد بيّن الشيخ مظاهر الشرك التي وقعت فيها الأمم السابقة، وانتقدها نقدًا علميًّا رصينًا.
وقد أظهر البحث أن الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله لم يقتصر في بيانه للعقيدة على الجانب النظري فقط، بل جمع بين الأدلة العقلية والنقلية، وقدم صورة متكاملة لعقيدة التوحيد تُناسب العقل والفطرة، وترد على شبهات الملحدين والمشركين بأسلوب علمي مؤصّل.

نتائج البحث

1. تميّز الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله بمنهج متكامل في عرض التوحيد، جمع فيه بين النقل والعقل، وبيّن فيه أن التوحيد أصل الأصول في الإسلام، وأساس كل دعوة نبوية.
2. ركّز الشيخ رحمه الله على توحيد الذات أكثر من غيره، وخصّه بتحليل فلسفي وعقلي عميق يردّ على دعاوى الشرك والوثنية والتعدد، معتمدًا على أدلة عقلية مثل دليل التمانع، ودليل استحالة التعدد الذاتي.
3. أظهر الشيخ رحمه الله في كتبه أن التوحيد في العبادة هو الثمرة الطبيعية للتوحيد في الذات، وأن من أقرّ بوحدانية الله في ذاته وصفاته وأفعاله، لا بد أن يفرده وحده بالعبادة.
4. تبيّن من خلال أقواله أن الشرك بأنواعه الثلاثة (في الذات، والصفات، والعبادة) باطل عقلاً وشرعًا، وأن الإسلام تميّز بالتوحيد الخالص على منهج سيدنا إبراهيم والأنبياء من ذريته.
5. اتسم أسلوب الشيخ رحمه الله بالحجة القوية والبيان الواضح، ومراعاة العقل والفطرة معًا، مما جعل طرحه في التوحيد ذا أثر كبير في رد الشبهات المعاصرة.
6. سجّل البحث أن توحيد العبادة عند الشيخ وإن لم يُفرد له بحثًا مستقلًا، إلا أنه حاضر بقوة في تعليقاته التفسيرية والحديثية، مما يدل على شمولية فهمه لموضوع التوحيد.

التوصيات

1. يُوصى بمزيد من الدراسات المعمّقة حول توحيد العبادة في كتابات الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله، وذلك لاستكشاف الجوانب التي لم يتم التوسع فيها في هذا البحث.
2. ينبغي إبراز جهود العلماء المتقدمين من شبه القارة الهندية في تقرير عقيدة التوحيد، من خلال بحوث مستقلة تسلط الضوء على أساليبهم المنهجية في الرد على الشرك والإلحاد.
3. يُستحسن إعداد دراسة مقارنة بين موقف الشيخ العثماني ومواقف العلماء الآخرين من التيارات العقدية المختلفة، وخاصة في مسألة التوحيد في الذات والأفعال.
4. يُنصح بإدراج النصوص العقدية العثمانية في المقررات التعليمية المعاصرة، نظرًا لثرائها العقلي ووضوحها المنهجي في بيان أصول العقيدة الإسلامية.
5. يُوصى بنقل مؤلفات الشيخ من اللغة الأردية إلى العربية واللغات العالمية الأخرى، لتعريف الأمة الإسلامية الأوسع بجوانب من تراثه العقدي والفكري.

[i] نور البشر بن محمد نور الحق، ترجمة الشيخ في فتح الملهم (كراتشي: دار العلوم، 1340هـ -2009م)، ج 1، ص 7. وفيض أنبالوي وشفيق صديقي، حيات شيخ الإسلام، ص 10.

[ii] نور البشر، ترجمة الشيخ، ج 1، ص 7؛ وأشار إلى الكتاب حياة العثماني (حيات عثماني) للأستاذ أنوار الحسن الشيركوتي رحمه الله.

[iii] فيض أنبالوي وشفيق صديقي، حيات شيخ الإسلام، ص 11.

[iv] عبد الرشيد أرشد، العشرون أكابرون المسلمون، ص 545-546. والشيركوتي، أنوار الحسن، تجليات عثماني (ملتان: إدارة تأليفات أشرفية، 1427هـ)، ص 35.

[v] هو محمد شفيع بن ياسين الديوبندي العثماني الحنفي. تخرج في دار العلوم ديوبند سنة 1335 هـ. أخذ عن أنور شاه الكشميري، و عزيز الرحمن، و شبير أحمد العثماني. درس بعدها في دار العلوم ديوبند لمدة 26 سنة. هاجر إلى باكستان واستقر في كراتشي وأسس بها دار العلوم كراتشي، كما كان مفتيا أيضًا.

[vi] ولد ببلدة بريلى (الواقعة اليوم ضمن أتر برديش)، والده هو الأديب والشاعر ذو الفقار علي الديوبندي. ناضل ضد الإنكليز واعتقل من قبلهم وهجر إلى مالطة. من آثاره ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الأردية.

[vii] المصدر السابق.

[viii] نور البشر، ترجمة الشيخ، ج 1، ص 7.

[ix] نور البشر، ترجمة الشيخ، ج 1، ص 8.

[x] ولد في 12 ربيع الثاني عام 1317 هـ (20 أغسطس 1899م)، في مدينة بوبال، عاصمة ولاية بوبال الأميرية. أبوه هو مولانا محمد إسماعيل كاندهلوي (توفي عام 1942م)، وهو باحث إسلامي وتلميذ الحاج إمداد الله المهاجر المكي، كان يعمل في إدارة الغابات بالدولة. محمد إدريس كاندهلوي اهتم بالتفسير والحديث، حيث شغل منصب الشيخ المُفسّر في دار العلوم ديوبند في الهند، ثم هاجر إلى باكستان وشغل منصب الشيخ المُحدّث والمُفسّر في الجامعة الأشرفية بلاهور. ألّف عددا من الكتب في تفسير القرآن الكريم، وعن سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. تخرج من دار العلوم ديوبند وجامعة مظاهر العلوم سهارنفور، ودرس تحت إشراف علماء منهم خليل أحمد السهارنفوري وأنور شاه الكشميري وشبير أحمد العثماني. توفي 28 يوليو 1974م. وانظر لترجمته: مقدمة ''منحة المغيث شرح ألفية العراقي في الحديث'' للدكتور ساجد عبد الرحمن الصديقي (بيروت: دار البشائر الإسلامية، ط 1، 1430هـ -2009م)، ص 70. والبخاري، أكابر علماء ديوبند، ص 215، 220. والبرني، علماء ديوبند وخدماتهم في علم الحديث، ص 168، 171.

[xi] انظر لترجمته: البخاري، محمد أكبر شاه، أكابر علماء ديوبند، ص 196.

[xii] نور البشر، ترجمة الشيخ، ج 1، ص 8.

[xiii] الشيركوتي، تجليات عثماني، ص 643.

[xiv] أيضًا، ص 647.

[xv] نور البشر، ترجمة الشيخ، ج 1، ص 8.

[xvi] أيضًا، ص 9.

[xvii] الزَّبيدي، أبو الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني الملقّب بمرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس (دار الهداية)، ج 9، ص 266.

[xviii] الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، القاموس المحيط (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 1426هـ - 2005م)، ص 324.

[xix] أيضًا.

[xx] ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الرويفعى الإفريقى، لسان العرب (بيروت: دار صادر، 1414هـ)، ج 3، ص 450.

[xxi] جُبران مسعود، معجم الرائد (بيروت: دار العلم للملايين، آذار/مارس 1992م)، ص 252.

[xxii] إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ج 2، ص 1016.

[xxiii] الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1420هـ)، ج 4، ص 148.

[xxiv] ابن فورك، محمد بن الحسن، مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1425هـ - 2005م)، ص 55.
[xxv] سورة البقرة: 163.
[xxvi] سورة الشورى: 11.
[xxvii] سورة الحديد: 3.
[xxviii] الباقلاني، القاضي أبو بكر بن الطيب البصري، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به (القاهرة: دار التوفيق النموذجية، 1421هـ - 2000م)، ص 22.
[xxix] الجويني، أبو المعالي ركن الدين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الملقب بإمام الحرمين، كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الأعتقاد (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1430هـ - 2009م)، ص 55.
[xxx] الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، المطالب العالية من العلم الإلهي (بيروت: دار الكتب العربي، 1407هـ - 1987م)، ج 3، ص 256.
[xxxi] الرازي، المطالب العالية، ج 3، ص 257-260.
[xxxii] أيضًا، ص 262.
[xxxiii] إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ج 1، ص 480.
[xxxiv] ابن منظور، لسان العرب، ج 10، ص 448.
[xxxv] الزبيدي، تاج العروس، ج 27، ص 223-224.
[xxxvi] إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ج 1، ص 480.
[xxxvii] ابن منظور، لسان العرب، ج 10، ص 449-450.
[xxxviii] العثماني، التفسير، ج 2، ص 243، حاشية 3.
[xxxix] سورة الذاريات: 56.
[xl] العثماني، فتح الملهم، ج 1، ص 335؛ والتفسير، ج 2، ص 175، حاشية 2.
[xli] العثماني، فتح الملهم، ج 1، ص 371.
[xlii] العثماني، فتح الملهم، ج 1، ص 353.
[xliii] العثماني، التفسير، ج 2، ص 311، حاشية 6.
[xliv] أيضًا، ص 127، حاشية 1.
[xlv] أيضًا، ص 273، حاشية 5.
[xlvi] العثماني، الإسلام، ص 41.
[xlvii] العثماني، شبير أحمد، فضل الباري: شرح صحيح البخاري (ملتان: ذي قعدة 1433هـ)، ج 1، ص 219-223، 353.
[xlviii] العثماني، الإسلام، ص 28-29.
[xlix] كما قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ﴾ (سورة الأنبياء: 22)
[l] العثماني، الإسلام، ص 29-31.
[li] أيضًا، ص 31-32؛ والتفسير، ج 2، ص 265. وفتح الملهم، ج 1، ص 353-354.
[lii] العثماني، التفسير، ج 1، ص 365، حاشية 2.
[liii] العثماني، الإسلام، ص 32-34.
[liv] العثماني، الإسلام، ص 34-36.
[lv] أيضًا، ص 36.
[lvi] وانظر للعثماني، فتح الملهم، ج 1، ص 354؛ أورد الشيخ نفس المضمون هناك، نقلًا عن الكشف.
[lvii] وانطر للجملة الأخيرة لحاشية 3: العثماني، التفسير، ج 1، ص 851، حاشية 3. وهذا متعلق بمسألة القدر أيضًا.
[lviii] العثماني، الإسلام، ص 36-40.
[lix] العثماني، التفسير، ج 1، ص 365، حاشية 2، ص 645، حاشية 3.
[lx] أيضًا، ج 1، ص 685، حاشية 3، ج 2، ص 115، حاشية 1، ص 195، حاشية 2، 4، ص 229، حاشية 4، ص 279، حاشية 3، 5.
[lxi] العثماني، الإسلام، ص 40-41؛ وفتح الملهم، ج 1، ص 353؛ والتفسير، ج 2، ص 229، حاشية 4، ص 265، حاشية 3، ص 279، حاشية 2.

[lxii] العثماني، التفسير، ج 1، ص 537، حاشية 4، ص 637، حاشية 1، ج 2، ص 255، حاشية 11.
[lxiii] العثماني، التفسير، ج 2، ص 265، حاشية 3.
[lxiv] سورة إبراهيم: 24-26.
[lxv] سورة فاطر: 10.
[lxvi] العثماني، التفسير، ج 2، ص 275، حاشية 3.
[lxvii] سورة الذاريات: 56.
[lxviii] العثماني، التفسير، ج 1، ص 593، حاشية 1، ج 2، ص 229، حاشية 4 ص 597، حاشية 3 ص 599، حاشية 2، ج 3، ص 779، حاشية 4؛ والإسلام، ص 41-42.
[lxix] العثماني، فتح الملهم، ج 1، ص 371.
[lxx] سورة آل عمران: 181.
[lxxi] سورة المائدة: 64.
[lxxii] سورة المائدة: 18.
[lxxiii] العثماني، التفسير، ج 1، ص 549-550، حاشية 2.
[lxxiv] العثماني، فتح الملهم، ج 1، ص 372.
[lxxv] العثماني، التفسير، ج 1، ص 593، حاشية 1، ج 2، ص 229، حاشية 4؛ والإسلام، ص 41-42.
[lxxvi] كما سبق تحت العنوان 'التوحيد الخالص'.